الإحاطة فى أخبار غرناطة

للسان الدين بن الخطيب

obeikandl.com

هذا المصدر الأدبى التاريخى لذى الوزارتين " لسان الدين بن الخطيب " ونسبه : محمد بن عبد الله بن سعيد بن على بن أحمد السلمانى " ، وهو قرطبى الأصل ، ويكنى " أبا عبد الله " ويلقب من الألقاب المشرقية " بلسان الدين " ويعرف بيته فى القديم " ببتى الوزير " ثم " ببنى الخطيب " ثم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية . مثل " يحيى بن يحيى الليثى " وأمثاله لدى وقعة " الرّبْض " وهى وَقْفَة تطلق على الثورة التى قام بها " أهل قرطبة " بتحريض الفقهاء ضد الحَكَم بن هشام أمير الأندلس ، وذلك لقصد خلعه وعزله وكان ذلك فى شهر رمضان سنة " ٢٠٢ هـ " الموافق شهر مارس ٨١٨ م .

وقد بدأت فى الرّبض الجنوبى لقرطبة فى الناحية المسماة " شقندة " ولكن " الحكم بن هشام " استطاع سحق الثورة ومطاردة الثوار ، وتمزيقهم ، وقام بصلب الكثير منهم على شاطئ النهر ، وتقدم دورهم ، وفرّ الكثير من أعيان " قرطبة " وتفرقوا أيدى سبأ فى مختلف القواعد ، وسارت طائفة كبيرة منهم إلى المشرق ، ثم انتقل " لسان الدين بن الخطيب " بعد هذه الوقعة إلى " طليطلة " ثم تسربوا محوّمين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليهم ، فاستقرّ منهم " بالموسطة " " الأندلسية " جملة من النبهاء والعلماء والفقهاء والأعيان مثل " عبد الرحمن " قاض بلدة " باغة " [٢] وغيره .

ويقول " لسان الدين الخطيب " وقد قرأت كتاب الله على " المُكتِّب " يعنى صاحب الكتاب الذى يتلقى فيه التلاميذ حفظ كتاب الله " القرآن الكريم " وكان محفظه يتحلى بالتقوى والصلاح ، والتبحر فى علوم القرآن الكريم . وهو الأستاذ الصالح " أبى عبد الله بن عبد الولى العواد " [٣] ، وكان ذلك كتابة ثم حفظاً ، ثم تجويداً إلى

---

٢ - الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٤ ص ٤٣٩ وما بعدها ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ، عام ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م .
٣ - ذاته ص ٤٥٧ .

مقْرى أبى عمرو " ثم الخطيب أبى الحسن القيجاطى " فقرأ عليه " لسان الدين " القرآن والعربية ، ويقول عنه وهو أول من التففت به ثم لازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ أبى عبد الله بن الفخار البيرى . ثم قرأ على " أبى عبد الله بن بكر " – رحمه الله – وتأدب على يد الشيخ الرئيس " أبى الحسن بن الجياب " كما روى عن كثرة كاثرة ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية من أمثال المحدث " أبى عبد الله بن جابر " وأخيه أبى جعفر ، والقاضى الشهير " أبى البركات بن الحاج " والشيخ المحدث الصالح " أبى محمد بن سَلْمُون " وأخيه القاضى " أبى القاسم " وأبى عمرو بن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير " والأستاذ اللغوى " أبى عبد الله بن بِيبش " والمحدث الكاتب " أبى الحسين التلمسانى والشيخ الحاج " أبى القاسم بن البناء " وأبى محمد الزرقون " وغير كثير من أئمة العلم فى شتى فنون المعرفة ذلك الأمر الذى جعله عالماً كاتباً إماماً من طرزٍ فريد .

وقد ساعد على ذلك العصر الذى عاش فيه " لسان الدين بن الخطيب " فقد كان القرن الثمن الهجرى فى مملكة " غرناطة " بالنسبة لدولة التفكير والأدب ، عصر النضج والزدهار . وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى ، فى أعظم عصوره مثل " ابن سلطور الهاشمى " ، وابن خاتمة الأنصارى " شاعر " ألمرية " والوزير أبو عبد الله بن الحكيم اللخمى " والوزير " أبو الحسن الجباب " وابن جزىّ " والوزير " ابن الخطيب " والوزير " ابن زمرك " وأو سعيد بن لب ، وغيرهم ممن حفل بهم هذا العصر ، وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم . وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل ، أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن . وكان ابن الخطيب عبقرية متعددة النواحى ، كثيرة الجوانب ، فهو طبيب وفيلسوف .

وقد ساعد على ذلك العصر الذى عاش فيه " لسان الدين ابن الخطيب " فقد كان القرن الثمن الهجرى فى مملكة " غرناطة " بالنسبة لدولة التفكير والأدب ،

عصر النضج والازدهار . وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء الـذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى ، فى أعظم عصوره مثل " ابن سـلطور الهاشـمى " وابن خاتمة الأنصارى شاعر " ألمرية " والوزير " أبو عبد الله بن الحكيم اللخمى " والوزير " أبو الحسن الجباب " و " ابن جزى " والوزير " ابن الخطيب " والـوزير " ابن زمرك " " وأبو سعيد بن لب " وغيرهم ممن حفل بهم هذا العصـر ، وزخـرت دولة التفكير والأدب بآثارهم .

وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الهائـل ، أعظـم شخصـية ظهـرت بالأندلس فى القرن الثامن . وكان ابن الخطيب عبقرية متعـددة النـواحى ، كثيـرة الجوانب ، فهو طبيب وفيلسوف وكاتب وشاعر. ومؤرخ بارع ، ووزير وسياسـى ثاقب النظر ، قوى الادراك . وكان يمثل بعبقريته وقوة نفسه، وأصـالة تفكيـره ، وروعة بيانه ، وجزالة شعره أعظم ما تمخضت عنه الأنداس الكبرى ، وكان بتعدد جوانبه وسعة أفقه ، ورحابة فكره ، مزيجا من عبقريات متعددة بلغ " ابن الخطيب " القمة فى كل منها . ونراه يقص علينا حوادث حياته الشخصية والسياسية خاصة فى كتابه " نفاضة الجراب " و" اللمحة البدرية " و" ريحانة الكتاب " .

وقد ولد " ابن الخطيب " فى الخامس والعشرين من شهر رجب سـنة ٧١٣ هـ ،١٦من نوفمبر سنة ١٣١٣ م. ومن رائق شعره ما أنشده بين يدى السـلطان " أبـو عنان " :-

خليقـة الله ساعـد القـدر — علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كـف قدرتـه — ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى — لنـا فى المحـل كفك المطـر
والناس طـرا بأرض أندلسى — لولاك ما أوطنوا ولا عمـروا
وغايـة الأمـر أنـه وطـن — فـى غير علياك مالـه وطـر

وتأثر السلطان لإنشاده أيما تأثر ، ووعد بإجابة سائر مطالبهم . ويصف لنا " ابن الخطيب " نجاح سفارته فيقول :-

" وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل وإمداد موهوب ، ومهاد ومهاداة أثيرة ، وقطار مجنوب محمول ، وطعمة مسوغة ، وكان الوصـــول فى وسط محرم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وقد نجح الســـعى ، وأثمـــر الجهـــد وصدقت المخيلة " [٤]

تواليفه :-

وللعالم الجليل واحد عصره ، ونادرة زمانه " لسان الدين بن الخطيب " كثـــرة كاثرة من التواليف العجيبة ، التى تعج بالفوائد الجمة ، والمعـــارف الغزيـــرة التـــى خلدته خلود الزمن وسارت مع الركبان ، وأفاد منها القاص والدانى وما تزال نبراسا يضىء الطريق لطلاب العلم ، وعشاق المعرفة .

من بين هذه التأليف . ذينكم المصدر الذى نحن بصدد دراسته وهو :-

أولاً : الإحاطة فى أخبار غرناطة [٥] .

ثانياً : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية .

ثالثاً : الحلل المرقومة .

رابعاً : السحر والشعر .

خامساً : ريحانة الكتاب .

سادساً : الصيب والسهام .

سابعاً : نفاضة الخراب .

ثامناً : رجز الأغدية .

تاسعاً : رجز السياسة .

١- الإحاطة ج١ ص٢٣ بتصرف
٢- ذاته ص ٤٥٩ وما بعدها .

obeikandl.com

عاشراً : كتاب الوزارة ومقامة السياسة .

وغير ذلك من مؤلفاته العجيبة والتى ما تزال معينا ثرا ينهل منه طلاب العلم ، وعشاق المعرفة ومن بين هذه المؤلفات مؤلفات تاريخية ينقلها المقرى فى كتابيه " نفح الطيب " و" أزهار الرياض " وإليك بعضها :

أولا : كتاب الاحاطة والذى نحن بصدد دراسته .

ثانيا : الكبسة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة .

ثالثا : التاريخ المحلى فى مساجلة المعلى .

رابعا : كناسة الدكان بعد انتقال السكان . وقد وضعه ابن الخطيب فى بداية إقامته الأولى " بسلا " منفيا بالمغرب .

خامسا : معيار الاختيار فى ذكر المشاهد والديار .أو فى ذكر المعاهد والآثار . إلى غير ذلك من كتب التواريخ التى تخصه [٦].

بين يدى الكتاب

كتاب " الإحاطة فى أخبار غرناطة " أو " الإحاطة بتاريخ غرناطة " أو " الإحاطة فى تاريخ غرناطة " أو " الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة " وهو بلا ريب أشهر كتب " لسان الدين بن الخطيب " وأكثرها قيمة وأهمية بل ومن أضخمها . والكتاب لا يعد تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود ، ولكنه يعد موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة ، من الأخبار والأوصاف والمعالم ، فهو يتناول وصفها ، وجغرافيتها وخططها ، ومواقعها ، وما يحيط بها ، من المروج والجبال ، ثم يتناول تاريخها منذ نزل بها العرب الأوائل ، وأخبار من كان بها .ومن نزلها ، أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلبين ، كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية منذ عصر مؤسسها " محمد بن يوسف بن الأحمر "

١- نفح الطيب للمقرى وكذا أزهار الرياض .

حتى عصر المؤلف وهذا عدا ما يورده المؤلف خلال موسوعته من تراجم فياضة لملوك الدولة النصرية المتعاقبين .

كما أن الكتاب يورد لنا تراجم لطائفة كبيرة من الأعلام والأكابر الذين عاشوا فى غرناطة ، أو نزلوا بها أو وفدوا عليها فى مختلف عصور التاريخ الأندلسى . ويفيض فى ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران ، ويعنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه ، سواء فى الأندلس أو المغرب ثم يورد لنا كثيرا من شعرهم ونثرهم .

ويضم كتاب " الإحاطة " من هذه التراجم زهاء الخمسمائة . ويتناول " ابن الخطيب " من خلال هذه التراجم تاريخ عصره ، وملوك عصره ، سواء فى الأندلس ، أو المغرب ، بدقة وإحاطة ، ويصف ما وقع فيه من الأحداث السياسية والعسكرية ، وصف الخير الحاذق الماهر العارف بالأمور معرفة الخير المطلع على أسرارها الواقف على أخبارها . كما نراه لا يلتزم بالترتيب التاريخى لمن ترجم لهم بل يلتزم بالترتيب الأبجدى وتلك طرق العلماء ، وسبيل النجباء ، وديدن النابهين والأذكياء . بيد أنه لا يلزمه بطريقه دقيقة .

ويذكر لنا " ابن الخطيب " مصادره فى مقدمته ، وفى سياق كتابه ، وفى مقدمتها : تواريخ ابن القوطية ، وبنى الرّازى و" المقبس " لابن حيان " و" قلائد العقبان " للفتح بن خاقان " و" الذخيرة لابن بسام " و" تاريخ مالقة " لابن عسكر . و" البيان المقرب " لابن غدارى المراكشى ، وروس القرطاس لابن أبى ذرع الفاسِ نسبة إلى مدينة " فاس " إحدى مدن المغرب العربى – إلى غير ذلك من أمثال الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد إلى آخره ...

ويبدو أن " لسان الدين بن الخطيب " ألف كتاب " الاحاطة " قبل محنته الأولى ، حينما عزل سلطانه ، ونفى معه إلى المغرب وكان ذلك فى سنة (٧٦١) هـ

واستأنف الكتابة فيه بعد عودته من منفاه بالمغرب إلى " غرناطة" فى سنة ٧٦٣ هـ واستمر " ابن الخطيب " فى الوزارة زهاء عشرة أعوام ، وكانت هذه الحقبة من ألمع فترات حياته . بل وكانت هذه الحقبة أكثر الحقب استقراراً ، ونُضجاً وفى هذه الحقبة وضع " ابن الخطيب " جُلّ كتبه ورسائله.

وأتم كتاب " الإحاطة " قبل سنة ٧٩٦ هـ وذلك وحسبما يبدو مما كتبه " ابن الخطيب " إلى ابن خلدون فى رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٧٩٦ هـ وفيها يقول له :

" إنه بعث بنسخة من " الإحاطة " إلى المشرق وهو مستمر فى إتمامها وتنقيحها حتى أوائل سنة " ٧٧٢ هـ " والمجلد الأول من كتاب الإحاطة ينتهى بقسم من ترجمة " محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج ابن يوسف بن نصر " والمجلد الثانى يبدأ ببقية ترجمة السلطان الأسبق آنف الذكر ، وأول تراجمه " محمد بن يوسف بن محمد بن حمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى " وينتهى بترجمة " محمد بن على بن عبد الله اللخمى " ويحوى الجزء الثالث على تراجم تبدأ بترجمة " محمد بن على بن فرج القربليانى " وينتهى بترجمة " يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى " ومكتوب فى نهايتها " كمل مختصر الإحاطة " ثم يلى ذلك ترجمة " ابن الخطيب " لنفسه .

والاحاطة مطبوع بتحقيق الأستاذ " محمد بن عبد الله عثمان " ويقع فى أربع مجلدات. نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ولدينا الطبعة الثانية بتاريخ ١٣٩٣ ه ١٩٧٣م.

نماذج من الكتاب

(أحمد بن حسن بن باصة الأسلمى)

المؤقِّت بالمسجد الأعظم بغرناطة وأصله من شرق الأندلس ، وانتقل إليها والده ، ويكنى " أبا جعفر " كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، معرفة بالهيئة وإحكاماً للآلة الفلكية ، ينحت منها بيده ذخائر ، يقف عندها النظر والخبر ، جمال خط ، واستواء صنعة ، وصحة وضع ، بلغ فى ذلك درجة عالية ، ونال غاية بعيدة ، حتى فضل بما ينسب إليه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين ، وآزرت آلاته بالحمايريات ، والصفاريات وغيرها من آلات المحْكمين ، وتغالى الناس فى أثمانها ، أخذ ذلك عن والده " الشيخ المتفنن ، شيخ الجماعة فى هذا الفن [٧].

نموذج آخر

وهو ترجمة من التراجم التى أودعها " ابن الخطيب " كتابه وهى للشاعر " .

(محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطلة الدوينى)

ويكنى أبا القاسم " وكان الشاعر الدوسى حسن الصورة ، لازم القراءة على شيوخ بلده ، ونظم الشعر علىالحداثة ، وترشح للكتْب بالدور السلطانية مع الجماعة ، ممن هو فى نظمه . ومن شعره :

أحسب وحده يوم رأسك ربما تُغطى السَّلامة فى الصراع سَّلما [٨]

وهذه ترجمة للشاعر : **(محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن أحمد بن يوسف بن أحمد الغسانى)** : وهو من أهل غرناطة ، ويكنى " أبا عبد الله ". وكان محدثاً نبيلاً حاذقاً ذكياً ، وله شرح جليل على كتاب " الشهاب " واختصار

---

٧ ـ الإحاطة جـ ١ ص ٢٠٤ .
٨ ـ ذاته جـ ٢ ص ٢٥٥ .

حسن فى " اقتباس الأنوار " للرّشاطى ، وكان كاتباً وافر الحظ من الأدب ، يقــرض شعراً لا بأس به .

ومن شعره فى ذكر أنساب طبقات العرب :

الشعب ثـم قبيلـة وعمــارةُ ... بَطْــن وفخــذٍ والفضيلة تابعة

فالشعب يجمـع للقبائل كلهــا ... ثــم القبيلــة للعمــارة جامعة

والبطن يجمعـه العمار فاعلمن ... ذو الفخذ يجمعه البطون الواسعة

والفخذ يجمـع للفضايل كلهـا ... جــاذت على نَسَقٍ لهــا مُتَتَابعة

فخزيمـة شعــبٌ وإن كنانــة ... القبيلة عنهــا الفضايل شاسعـة

وقريشها تسمو العبارة يا فتى ... وقُصيٌّ بطــن الأعَــادى قاسعة

ذا ما ثمّ فخـذٌ وذا عباسُهــا ... إلا الفضيلــة لا تُنــاط بسابعة

وقد ولد شاعرنا بمدينة " غرناطة " سنة ثمان وستين وخمســمائة ، وكانــت وفاته بمدينة " مرسبة " فى شهر رمضان سنة " تسع عشرة وستمائة [٩].

(على بن صالح أبى الليث الأسعد بن الفرج بن يوسف)

وهو " طُرطُوشى " الأصل ، سكن " دانية " ويكنى " أبا الحسن " ويعــرف " بابن عِز الناس " . وقد كان عالماً بالفقه ، حافظاً لمسايله ، متقدماً فى علم الأصول ، ثاقب الذهن ، ذكى الفءاد ، بارع الاستنباط ، مسدّد النظر ، متوقد الخاطر ، فصيح العبارة ، ذا حظ مروض وقد روى عنه : أبو بكر أسامة بن سليمان ، وسلمان بــن محمد بن خلف ، ويحيى بن عمر بن الفصيح .

وله مصقات كِثَار منها : = كتاب العزلة ، وشرح معانى التحية . وقــد ولــد بطرطوشة سنة ثمان وخمسمائة وتوفى رحمه الله بمدينة " دانية " وكــان قــد قتــل مظلوماً ، بإذن " ابن سعيد الأمير " رى رمضان سنة ست وستين وخمسمائة [١٠] .

---

٩ ـ ذاته جـ ٣ ص ١٧٥ .

١٠ ـ ذاته جـ ٤ ص ١٨٣ وما بعدها .